النسوية
هويات مختلفة أم هوية واحدة؟

فاطمة المحسن

تكمن خلف كل تنظيرات الكتابة حول النسوية، إتجاهات فكرية وفلسفية تتجاوب او تتنافر معها، ففكرة النسوية أوحركة تحرير المرأة أو مساواتها لم تخلق من العدم، والجدل الذي دار حولها منذ البداية، هو جدل في عمقه يتجه الى فحص مفاهيم مثل الاخلاق والمنفعة والدين والقيم، وضمنها مبدأ الفردانية والفعل والقانون الاجتماعي.

استطاعت العلمانية في الغرب فتح الباب أمام نقاش العقل والمسؤولية وهو المدخل الذي بدأ من خلاله التنقيب عن صيغ جديدة لمفهوم حرية الانسان وبينها حرية المرأة. ولا شك في ان المطالب المدنية للنساء بما فيها مطالب الاجور المتساوية وحق الانتخابات، قد مرت عبر موشور التحولات الاقتصادية والمنجزات العلمية في الغرب، غير ان الادب قد أسهم في دفعها الى آفاق اوسع، فكان تأثير الروائيات الانكليزيات نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين ، قد أحدث النقلة النوعية في تأمل العلاقات الاجتماعية وطبيعة الحساسية التي تتحرك في حدودها حقوق المرأة وواجباتها. وليس مستغربا والحالة هذه ان تكون أديبة مثل فرجينيا وولف وناقدة مثل جوليا كريستيفا وراء منعطفات مهمة في تحديد منطلقات الافكار النسوية، وكان التحول الاهم في مصطلح النقد النسوي وهو شديد التاثير على عالم النقد الحديث،قد تبدى بصدور كتاب العالمة اللغوية الاسترالية ديل سبندر (لغة من صنع الرجل)وهو مرجع مهم حول اللغة التي يدرك الانسان بها الواقع.

النسوية الغربية لم تقف عند حدود معتقد او فكرة ثابتة منذ تشكلها الاول الى اليوم، فهي في حركة دائبة لتبديل أسئلتها وصياغتها على نحو جديد، وبقيت التخوم الاخرى في آسيا وافريقيا متلقية لأفكار تلك النسوية محاولة استنساخها وتحويرها وفق ثقافاتها المحلية.

نهاية القرن العشرين شهدت تململاً في قلب الغرب من قبل الدارسات ذوات الاصول الافريقية والاسيوية لتحديد هويات نسوية جديدة، ولم تكن تلك الافكار بمعزل عن النقاش الدائر حول مفهوم السيطرة الاستعمارية وثقافة الانسان الابيض، مقابل ثقافات آخرى تتعامل معها كضديد أو كمحاور لقبول أو رفض مكوناتها.

لعل النساء الافريقيات والهنديات اللواتي اكتسبن ثقافة غربية كن وراء هذه الموجة،لحين ماكان لصوت التركيات والايرانيات أصداء جديدة مطعمة بثقافة إسلامية نشأت في ظل مفارقة بروز الحركات الاصولية في تلك البلدان.

ومع ان المباحث الجديدة للنساء المسلمات بما فيها مباحث العربيات، كانت مجرد محاولة لاكتشاف ما آلت اليه تجارب الدولة الحديثة وكيفية تعاملها مع النساء، غير انها تتجه نحو افق تحديد هوية جديدة لنسوية تحمل خصوصيتها وتمايزها عن النسوية الغربية.

هل بمقدورنا والحالة هذه التحدث عن تلك الهوية باعتبارها طاردة للهوية النسوية الغربية او متنافرة معها، ام نستطيع ان نجد لها امتدادا او تشابها واضحا في مغزى وجوهر طروحاتها مع النسوية الغربية ؟.

في تحديد الاجابة عن هذا السؤال علينا ان نفهم قضية تتعلق باشكالية تعريف النسوية ذاتها، تلك الإشكالية التي شغلت الدارسين الغربيين وانصبّت على تشخيص ما إذا كانت النسوية نظرية معرفة او هي طريقة بحث او هي معتقد سياسي. لاشك ان المباحث التي نتجت عن جهود النساء والرجال في هذا الميدان، كانت تتقدم في سياق تطور المفاهيم الفكرية والفلسفية والنظر في تبدل معانيها في اللغة، فالوظيفة الرئيسية للمفاهيم تتحدد من خلال كيفية انتقاء الفكر لصفات معينة للأشياء ومعرفة قوانين الاشتغال بها في عملية التفكير. في سياق تلك العمليات حاول الفكر النسوي الافادة من مناقشة موضوعية او ذاتية المعرفة، التي تم فيها دحض فكرة التجرد الكامل من الهوى عند تصدي الباحث الى قضية معرفية، فمناهج المقارنة والتركيب والتحليل والاستنباط، مهما كانت موضوعية استخدامها، تنطوي على قدر من تحيز وذاتية مستخدمها. ومن هنا كان بمقدور النسوية التحدث عن الذات الذكورية التي بحكم موقعها في الثقافة المتوارثة،تعمد الى طرد وجهات النظر النسائية عند قراءة التاريخ او عند تصديها للاسئلة الثقافية والسياسية.

لاشك في ان النسويات في العالم الثالث وفي الشرق الأوسط على وجه التحديد، حاولن قراءة تاريخ بلدانهن من زاوية وضع المرأة ضمن سياق تطورات او انتكسات عملية التحديث، وكن في هذا المجال على تماس مع طروحات المعرفة النسائية في الغرب، غير ان الجديد في مواقفهن هو رفضهن للصورة التي رسمها الغرب للمرأة الشرقية وللمرأة المسلمة خصوصا. ولعل بعضهن توصل الى استنتاج أساسي يرى ان الدول الوطنية التي تشكلت بعد الاستقلالات كانت تحمل في رحمها بذور فشل تحقيق المساواة للمرأة، لانها دول شكلت من قبل المستعمر ووفق نمط حياته، أو انها حاولت تقليد او استنساخ تجربة الغرب. ومن هنا تبرز مفارقة لافتة وهي ان كل المتصدين لحركة تحرير المرأة في العالم الثالث انطلقوا من هذه النقطة، فكيف لنسوية هذا العالم الأخذ بها من دون ان تقوض الاساس النظري الذي انبنت عليه فكرة التحرير. هذا الرأي لم يكن وليد معاينة للتجربة على الارض وفحصها تاريخيا وحسب، بل هو محاولة لتفهم الاتهام الذي كان يشهر بوجه كل التحديثيين باعتبارهم غرباء عن الثقافة المحلية ومنتمين الى ثقافة الغرب.

البحث عن نسوية جديدة او خصوصية محلية للنسوية، يحمل في منطوياته في أحيان كثيرة وسواس التمايز، غير انه ايضا يساعد على اخصاب المعرفة بوسائل فحص جديدة. تجارب العالم الثالث الاجتماعية مرت بحركة ارتداد برزت في الدول الوطنية التي كانت تبدو وكأنها تمضي الى الامام في مشروعها نحو التحديث، ولم تكن تلك الانتكاسات وليدة عوامل خارجية،كما خيل لصناعها، بل كانت متأتية من هشاشة التغيير الذي جرى على أيدي أولئك المتغربنين الذين كانوا انتقائيين في الاخذ بعوامل التحديث ومنها فكرة تحرير المرأة.

الدرس الايراني على سبيل المثال يدل على ان التطور الذي جرى في وضع المرأة على عهد النظام البهلوي أتسم بالشكلانية وشمل طبقات محدودة ولم يشمل كل النساء. كما ان الباحثات الايرانيات يؤكدن على ان هذا النظام أستحوذ على قضية المرأة بحكم طبيعته، فالمواطنون في دولة الشاه خدم معترف بهم بفضل الدولة،على هذا تغدو الخطوات المتعلقة بتقدم النساء مجرد هبات شاهنشاهية، فكل الجمعيات والروابط النسائية وكل ماتنجزه المرأة يجري تحت الرعاية الملكية وبفضلها لا بسعي اجتماعي ومثابرة من قبل النساء انفسهن،من هنا جعلت الدولة هذه القضية تحمل بعدا ايديولوجيا في سياسة العصرنة التي تتبعها. ومثلما غدت المرأة مهمة لمشروع التحول الاجتماعي في الدولة البهلوية، ظلت المرأة في الجمهورية الاسلامية محور الدعوة من أجل مجتمع اخلاقي، وكلما زاد انخراط النساء في الحياة العامة باعتبارهن قوة عاملة، كلما ازدادت ضرورة فرض القواعد الاخلاقية لضمان عدم الاحتكاك بين الجنسين وتوفر صرامة كافية لمراقبة سلوك المرأة وتمثلها تلك القيم. وفي الحالين تحولت المرأة الى أيديولوجية تكمن خلفها صراعات من أجل فرض السيطرة الاجتماعية لقوى معينة دون أخرى.

وفي تركيا العلمانية لم تكن الايديولوجيا الاتاتوركية سوى التعبير عن القيم البطرياركية العسكرتارية،التي تفرض قواعد السلوك عن طريق القسر. ومع كل المنجزات التي قدمت للمرأة، بيد ان قضية إدماجها في الحالة العامة كانت تركز على إلغاء طبيعتها الانثوية او تحييدها، كما تقول احدى الدارسات التركيات. وهي تستطرد لم تنل المبادرات النسائية السياسية المستقلة أي تشجيع، بل على العكس فقد تحول (حزب النساء الشعبي) الذي تأسس في العام ١٩٢٣ الى (الاتحاد النسائي) ثم ما لبث ان تم حله عام ١٩٣٥ بعد حصول النساء على حق الانتخاب، حيث تقرر حينها ان النساء حصلن على المساواة الكاملة.

ومثلما حدث في تركيا، حدث في عهد الدولة الوطنية التي تشكلت في عدد من البلدان العربية، فتحرير المرأة لم يكن هدفا مرجوا في حد ذاته، بل هو جزء من مشروع أكبر يهدف الى بناء الدولة. وترى المصرية ميرفت حاتم ان النظام الناصري سعى الى دمج مطالب النساء ضمن برنامجه الاجتماعي، فكانت المحصلة هي مجموعة من الاجراءات السياسية والاقتصادية يمكن ان توصف بانها تمثل " نسوية الدولة " ، وهي الحقوق التي خدمت نساء الطبقة الوسطى، ولم تكن قادرة على انتشال الاكثرية الساحقة من الشرائح الفقيرة. كانت كل القوانين مدنية في دولة مصر الحديثة إلاّ قانون الاحوال الشخصية فهو وحده الذي بقي يخضع الى المؤسسة الدينية.

المرأة إذن كانت الديكور في حركات التحرر التي تستعين بها الاحزاب الرجالية لتزين واجهاتها بلافتة التقدم.

منطلق الحداثة في دول الشرق الاوسط عموما قام على أساس الهوية الوطنية التي تتطلب المحافظة على الرموز الجوهرية لها من المؤثرات الاجنبية، وتتركز حول الاحوال الشخصية للمواطنة الحديثة، وتحديدا فيما يتعلق بمكانة المرأة وسلوكها، كما ترى احدى الباحثات التركيات، ومن هنا كان الفكر النسوي في هذا الحيز يرتبط بالسياق الوطني الذي ينتجه، ويتعرض الى الانتكاسات التي تتعرض لها تجاربه.

في الاجندة الوطنية الهندية كما تكتب احدى الدارسات الهنديات، تم معادلة المرأة ب "الأم والالهة" فاصبحت النساء مجرد "الملاذ الطاهر الاخير" الذي يقوم بمهمة حراسة جوهر الثقافة الوطنية. وهكذا لعبت مسألة " النوع" دورها الايديولوجي في خدمة الاستعمار والحركات الوطنية في العالم الثالث معا، واشكالية التبجيل للماضي كما تقول هذه الدارسة، هي ايضا انتقائية ، فالماضويون يستعينون بوسائل الاتصال الحديثة لنشر رسائلهم الايديولوجية دون التوقف عند أثرها في محو الهوية،فهم يتعاملون مع عصرنة تخصهم كأفراد ومجموعات رجالية، في حين ينظرون الى إلتزام النساء بقضايا المساواة على انها قيم غربية، على هذا يبدو التغريب مجرد مسمى بلاغي يستخدم انتقائيا.

تطورات الواقع العملي المتسارعة تضع قضية المرأة في قلب الصراع الايديولوجي بين الغرب والاصوليين في عالمنا، وهي لم تكن على صورة أخرى في ظل كل التطورات السابقة، أي انها لم تكن سوى قضية تابعة لصراعات تعمد الى ابرازها وتهميشها وفق مصالح قوى لا تمت لها بصلة. ولو استطاعت النسوية الجديدة في العالم العربي والشرق ألاوسط انتشال نفسها من براثن الاستخدام النفعي، لخطت الخطوة الاولى نحو صياغة تصورات جديدة تحفظ ديمومة استقلاليتها، ولكان بمقدور الدارس التحدث عن هويات منوعة للنسوية وليست هوية واحدة.

هل بمقدور النساء في عراق اليوم الافادة من تجاربهن وتجارب الاخريات، كي يكون بمقدورهن تشكيل صوت مستقل للنساء دون مبالغة وتهريج، يستطع ان يرغم الرجال على إحترامه والقبول بشروط تحركه؟.

من المبكر الحديث عن هذا الامر في ظل الاضطراب السياسي الذي يعصف بالعراق اليوم ، غير ان الوزيرة التي تقول انها ستستقيل إذا طلب منها حزبها هذا الامر، هي ذاتها التي تعيد تلك التجارب المؤلمة لتبعية المرأة وإذلالها في كل المراحل التي مر بها العراق.

خارج كل التوقعات

الكاتبة النمساوية الفريدي يلينيك تفوز بجائزة نوبل للآداب

كما هي العادة في السنوات الاخيرة، فاجأت الاكاديمية السويدية هذه السنة المتابعين بجائزتها بمنح جائزة نوبل للاداب عن العام ٢٠٠٤ يوم الخميس الماضي للنمساوية الفريدي يلينيك تقديرا لاعمالها التي تعالج من بين الموضوعات التي تعالجها دور المرأة في المجتمع، كما اعلنت الاكاديمية السويدية.

ويلينيك البالغة من العمر ٥٧ عاما هي مؤلفة رواية (معلمة البيانو) التي اقتبسها المخرج مايكل هانيكي في فيلم عام ,٢٠٠١ وهي المرأة العاشرة والكاتبة النمساوية الاولى التي تحصل على هذه الجائزة الادبية الرفيعة.

ونوهت لجنة الاكاديمية بـ(الانسيابية الموسيقية للاصوات والاصوات المضادة في رواياتها ومسرحياتها التي تكشف بعذوبة لغوية فريدة عبثية القوالب الاجتماعية الجاهزة وقوتها المسيطرة).

ولدت يلينيك في ٢٠ تشرين الاول ١٩٤٦ في منطقة شتيريي النمساوية من اب يهودي تشيكي.

تعلمت الموسيقى في سن مبكرة والتحقت فيما بعد بمعهد الموسيقى في فيينا لدراسة التأليف الموسيقى. وبعد تخرجها عام ١٩٦٤، تلقت دروسا في المسرح وتاريخ الفن في جامعة فيينا مع مواصلة دروسها الموسيقية، لتحصل عام ١٩٧١ على شهادة في عزف الارغن من معهد فيينا.

اكتسبت الكاتبة شهرة كبيرة خارج بلادها لاثارتها مواضيع مهمة مثل العلاقات الجنسية والعنف في المجتمع. كما تعتبر موضع جدل داخل بلادها بسبب آرائها في المسائل السياسية المعاصرة مثل حرب العراق ومعاداة السامية والعداء للاجانب، والتي تعبر عنها بحرية مطلقة في مقالات وكلمات ورسائل الى الناشرين.

وتقيم الكاتبة في فيينا وميونيخ بالمانيا، ومن كتبها العشيقات (١٩٧٥) و(المستبعدون) (١٩٨٠).

وكتبت الاكاديمية في بيانها ان (هذه الروايات تصور كل في اطار اشكاليتها، عالما بلا رحمة يواجه فيه القارئ نظاما متصلبا يتارجح بين العنف المستبد والخضوع، وبين الصياد والفريسة).

وتابع البيان (تظهر يلينيك كيف تترسخ انماط صناعة الترفيه في ضمير الناس وتشل مقاومتهم للظلم الطبقي والسيطرة الجنسية).

وللكاتبة اعمال ايضا في الترجمة حيث نقلت الى لغتها اعمالا لتوماس بينشون وجورج فيدو واوجين لابيش وكريستوفر مارلو، وفي كتابة السيناريو.

وتلقت جوائز ادبية كثيرة، منها جائزة الكليات الجامعية النمساوية للشعر (١٩٦٩) وجائزة التفوق من وزارة الفنون والتعليم في المانيا الفدرالية(١٩٨٣) وجائزة هينريش بول لمدينة كولونيا (١٩٨٦) وجائزة برلين المسرحية (٢٠٠٢) وجائزة شتيغ داغرمان السويدية (٢٠٠٤).

وكان النقاد رجحوا فوز امرأة بالجائزة هذه السنة، غير ان اسم الكاتبة النمساوية لم يرد بين المرشحات.

وقالت يلينيك في رد فعل على فوزها بجائزة نوبل انه ينبغي عدم اعتبار هذه الجائزة مكافأة للنمسا، مؤكدة في المقابل ان الجائزة كانت (مفاجأة) و(شرفاً كبيراً) لها، بحسب ما اوردت وكالة الانباء النمساوية.

وقالت يلينيك انها مريضة ولا يمكنها الحضور الى ستوكهولم في العاشر من كانون الاول/ديسمبر لتسلم جائزتها.

واعتبرت جاكلين شامبون التي نشرت ستة كتب ليلينيك في فرنسا ان اللجنة ابدت (شجاعة) باختيارها الكاتبة النمساوية اذ ان نتاجها ليس (بديهيا) على الاطلاق.

وقالت شامبون التي تملك دار نشر باسمها توزع اصداراتها دار (آكت سود)، متحدثة لوكالة فرانس برس ان (اعمالها مثيرة للاضطراب ونقدية وعنيفة من حيث لغتها ومواضيعها، حتى انه لم يكن يخطر لي اطلاقا ان تحصل على جائزة نوبل. وقد كتبت +الرغبة+ وهي رواية تعتبر اباحية).

ورأت ان (نتاجها رائع لانها ابتكرت لغة خاصة، لغة المانية تصعب للغاية ترجمتها. كتاباتها المسرحية اسهل، تتسم بطابع تعبيري قوي).

واضافت الناشرة (صدرت روايتها الجديدة (الطمع) عام ٢٠٠٣ عن دار لو سوي، لكنني انا من اكتشفها مع رواية (معلمة البيانو) عام ,١٩٨٨ وكان ذلك اول كتاب نشرته حين اطلقت داري الخاصة).

وقالت (رفضت رواية (الطمع) لان مترجماتي لم يرغبن في العمل عليها بسبب الصعوبات التي تطرحها).

وفي معرض الكتاب الجاري في فرانكفورت، احتفلت دار روفولت الالمانية للنشر بمنح الجائزة الى يلينيك التي وصفها ناشرها بانها (كاتبة سياسية بامتياز).

وقال الكسندر فيست الذي نشر اعمال يلينيك ردا على اسئلة مجموعة من ثلاثين صحافيا في هذا الملتقى العالمي للمنشورات (لم نتمكن من الاتصال بها حتى الان).

وستتلقى يلينيك شهادة وميدالية، اضافة الى شيك بقيمة عشرة ملايين كورون سويدية (١،١ مليون يورو).

عشر نساء فزن بالجائزة

❖ مع فوز النمساوية الفريدي يلينيك بجائزة نوبل للاداب امس تكون عشر نساء قد حصلن على هذه الجائزة منذ ١٩٠١ عند انشائها.

وفي ما يلي لائحة بالفائزات بجائزة نوبل للاداب:

. ١٩٠٩: سلمى لاغيرلوف (السويد)
. ١٩٢٦: غراسيا ديليدا (ايطاليا)
. ١٩٢٨: سيغريد اوندست (النرويج)
. ١٩٣٨: بيرل باك (الولايات المتحدة)
. ١٩٤٥: غابرييلا ميسترال (تشيلي)
. ١٩٦٦: نيلي ساك المولودة في المانيا والمقيمة في السويد
. ١٩٩١: نادين غورديمر (جنوب افريقيا)
. ١٩٩٣: توني موريسون (الولايات المتحدة)
. ١٩٩٦: ويسلاوا سسيمبورسكا (بولندا)
. ٢٠٠٤: الفريدي يلينيك (النمسا)

❖ الفائزون في السنوات الـ ١٥ الاخيرة

❖ في ما يلي اسماء الفائزين في السنوات الخمس عشرة الماضية بجائزة نوبل للاداب التي منحتها الاكاديمية الملكية السويدية امس للكاتبة النمساوية الفريدي يلينيك:

. ٢٠٠٤: الفريدي يلينيك (النمسا)
. ٢٠٠٣: جون ماكسويل كويتزي (جنوب افريقيا)
. ٢٠٠٢: ايمري كرتيس (المجر)
. ٢٠٠١: في.اس. نايبول (بريطانيا)
. ٢٠٠٠: غاو كسينجيان (فرنسا)
. ١٩٩٩: غونتر غراس (المانيا)
. ١٩٩٨: جوزيه ساراماغو (البرتغال)
. ١٩٩٧: داريو فو (ايطاليا)
. ١٩٩٦: ويسلاوا سزيمبروسكا (بولندا)
. ١٩٩٥: شيموس هيني (ايرلندا)
. ١٩٩٤: كينزابورو اوي (اليابان)
. ١٩٩٣: توني موريسون (الولايات المتحدة)
. ١٩٩٢: ديريك والكوت (سانتا لوتشيا).
. ١٩٩١: نادين غورديمر (جنوب افريقيا).
. ١٩٩٠: اوكتافيو باث (المكسيك).

لقطات

وتلقت الفريدا نبأ فوزها عن طريق الهاتف في منزلها في فيينا ووصفت منحها الجائزة بأنه ((مفاجأة) لكنه شرف عظيم)

منعت السلطات النمساوية مسرحياتها في عام ١٩٩٦ لانتقادها الفترة النازية، ولم تعرض اعمالها على المسارح في النمسا طوال عامين.

كما انتقدت مؤخراً صعود جورج هايدر، زعيم الجناح اليميني المتطرف في حزب الحرية الى السلطة ولوقوفة ضد الهجرة ورفضت ان تقدم اعمالها منذ انضمام هايدر الى الحكومة في عام ,٢٠٠٠

وقالت بالامس ان مرضاً ما (قد يكون المرض ماوصفته بـ(الخوف الاجتماعي) (سوشيال فوبيا) منعها من تسلم الجائزة في ستوكهولم (لست قادرة ذهنياً على الصمود امام ذلك، وانا مصابة بالخوف الاجتماعي ولااستطيع الوقوف اما حشود كبيرة من الناس، لكن من المؤكد التي سأكتب خطاباً).

لقد كان من المتوقع ان تفوز امراة بجائزة نوبل للاداب هذا العام لكن اسم الفريد يليتيك لم يكن ضمن اسماء المتنافسين المحتملين، وهي المرأة الاولى التي تفوز بها امرأة منذ عام ١٩٩٣ حين فازت يوني مدريسون بالجائزة كما تعد العاشرة منذ اقامة الجائزة عام ١٩٠١

فضلت الاكاديمية اظهار تفضيلها الادب مع الصدى السياسي، كما حصل مع عدة فائزين سابقين بضمنهم الفائز بالجائزة العام الماضي كوتسي، الجنوب الافريقي، كانت الفريد يلينيك قد استخدمت اعمالها الادبية كنوع من الصراع السياسي .

مشهورة جداً في الدول الناطقة بالالمانية لكنها مجهوله تماماً خارج هذه البلدان مع ان بعض اعمالها قد ترجم الى الانكليزية الفرنسية و السويدية.

اربعة من اشهر اعمالها وهي (معلمة البيانو) (ازمنة رائعة) (الشهوة) (نساء عاشقات) قد نشرت بالانكليزية.

-رواية (معلمة البيانو) تحولت الى فيلم سينمائي حمل عنوان (عازفة البيانو) وتتحدث عن ام طموحة تحفز ابنتها على ان تصبح عازفة بيانو في فرقة موسيقية ولكن تحصل كارثة للابنة فتظل تعاني من مشاعر نفسية صعبة.. وقد نال الفيلم احدى جوائز كان عام ٢٠٠١ .

جليل حيدر في منفاه الثلجي:

ذئب ابيض يدعو الفجر الى صيحته

الديوان: دائماً.. لكن هناك
الشاعر: جليل حيدر
جهة النشر: جلجامش للنشر/ السويد

كاظم محمد داخل

في بداية السبعينيات، عرفت جليل حيدر شاعرا يشاكس في قول الشعر، مثلما هو في مفردات الكلام اليومي التي يصدم بها الاصدقاء في المقهى او الحانة.

وكانت لمشاكساته نكهة خاصة، سرعان ما تكشف عن حميمية انتمائه لطقوس صداقة غير مقيدة بتعقيدات الطباع الزائفة، في ازمان لم (تبدد تذوقاتها) وكوامن ذاكرتها في تجارب النسيان الفاشلة.

هي نوع من سلوكيات منفتحة الطبع ومفضوحة الانطباع، تسبب، في بعض الاحيان، ازعاجاً لأخلاقيات خجلى ونفوس تصر على العيش في قيعان الرتابة وبلادة الاحساس.

مشاكسات تستفز حواجز العلاقة لتخرج ما تخفيه البواطن من نوازع اللحظة او المشاعر المؤجلة الى وقت آخر. ولتحررنا من شرنقة العقد الملتفة حول اراوحنا ونتوءات العلاقة لمفاجأة الازمان، والتي اذا ما تركت، ستقلص من عمر الصداقة وتعرضها للتلف.

كل ذلك من اجل ان يكون لنا صديق عمر واضح البياض. لا يحتال على تهويمة الامسيات، او ينتهك اسرار احلامنا الغامضة، صديق من الذين (يألفون المرض والسجون والاحلام) وكما السائحين (يودعون ظلالهم بلا ذيول او اثقال)، تاركين نكهة التجوال والحرية في نفوسنا او كما هو طعم الاوزو (بمطاعم تفتح للهواء رقصة ورغبة.. مع صديق يألف ضروریاته).

انها تشبه ما يألفه الحمام من ضروريات الطيران فوق سطوح بغداد والذي اغرم به جليل حيدر، في قصائده هناك، كما لو كان يوماً احد مربيه، (تلك الحمائم التي تحلق على سطوح بغداد، تلقط الذرة في مالمو) .. (ورثت غابة من الحمام والحب والانتظار) .. (رائياً الى افق ملطخ بالاجنحة).

لقد قدم الزاجل والاورفلي والالاج الى اوراقه هناك، (ليطير كلماته) في وجوهنا، بقلب لا يستطيع الا ان يألف (ماء الورد والجواهري وقوارب دجلة)، ونكهة مرور الصيادين على شاطئ لا يبعد كثيراً عن الحانة (غاردينيا) و (مقهى ابراهيم) و (خالنا موسى) الذي لم يألف خراب المشهد، فمات مبكراً في انقاضه.

ويصر جليل حيدر على استعادة المشهد من هناك. حيث (التدخين والشعر يكفيان عندما يتحدث باعثاً في محيطه غريزة الحرية)، ومثلما هو الغجري في تجواله الدائم (ذئب ابيض يدعو الفجر الى صيحته) يدعو جليل حمامات السطوح البغدادية ودجلة وقوارب الصيادين واصدقاء المشهد الضبابي ذاك.. الى صرخته في منفاه الثلجي البعيد.

وحين تطعن الحرية الكائنات بشموسها تكف عن كونها اشياء لا يتسع لها المكان او الذاكرة. الا القتلة والغزاة، فإن شموس الحرية تحولهم الى رماد يتطاير (خارج المقعد الاول في العاصفة) حيث لا مكان لهم في ازمنة الحرية والحضارة، ما داموا (يوصلون الحمار باللاسلكي وزراعة البصل بالقنبلة الذرية).

ولهذا نراهم يستقتلون في البقاء امراء للسيوف في عربات الموت المنطلقة من ازمنة العدم، كي لا تنبت بذرة للحرية او تكون هناك بارقة للامل في العيون. ولأنك لا تريد ان تخسر نفسك يوماً في عواصفهم، ف (كل ما عليك، ان تخزن الحطب لأيامك الباردة) وتبقى وفياً لـ (غابة من الحمام والحب) ولـ (زفير اسمه: الوطن).

فعفة النساء المهددة واحلام البنات المقروصة ومخاوف الرجال المسجونين في دواخلهم، ظلت (معاصم تذكارية بيد سجين سياسي) لم يفعل شيئاً للاثقال التي ارهقت الكواهل سوى ان (هبط بمظلة دونما كتاب او بندقية). كما ان المثقف الذي اختار الركض وراء تلك العربات السيوف، لم يكن اكثر من (ثعلبون.. يطرب لبياض الفكرة، للرطانة.. ارنب يتفصحن عند الباب العالي).

ولكن هناك ايضاً من ظلوا (خلف الضياء العاطل) متمترسين بصمتهم القوي بعيداً عن رطانة الضعفاء وحيل الثعالبة.. (اصغ الى وقع الحوافر في قلبك، هناك ضغائن لا بد منها لكي تحب وتتأمل كل هذه الدواجن الضعيفة وهي، تستسلم الى مصيرها الداكن حيث يلبد ثعلبون!).

ويبقى جليل حيدر يطارد الاسئلة على حافة افق يكاد ينغلق في وجوهنا ليحجب عنا ضياء الصباحات ويعطل ارادة الحياة في دواخلنا.. (كلما حط غراب / وتنحى زاجل عن غصنه/ اسأل: ماذا؟ .. اتينا من ينابيع سؤال، حيث نمضي نسأل الـ (ماذا / لماذا؟).

وترك جليل مساحة واسعة، من ديوانه، للاصدقاء من بلاده ليكون بها (على مقربة من العراق)، وليكونوا عنده ضيوفاً، بايقاعات مختلفة، في منفاه البعيد.. مظفر النواب (ضيف الحفل) .. عزيز الحاج (ضيف القتلة) .. فوزي كريم (ضيف بغداد) .. عبد القادر الجنابي (ضيف الفجر) .. سركون بولص (ضيف فحمة العشاء).. وعبد الرحمن طهمازي (الذي كان هناك بلا جلبة) وآخرون.

كما كانت لبغداد وظلال اسرارها، في قصائد جليل ، اكثر من مساحة ووقفة تذكر جليلة، فهي (تلك النومة الباردة في قارب او اصطياد جري في دجلة) .. وهي (المخدع والبار والعودة للصيف) .. و (ثمرة زجاجية في حقل من الصخور).

وتبقى للشاعر اسبابه ليسأل ويعيد كل هذا السواد الى النبع، حيث امكنة الاحلام الاولى، هي الجديرة بالبقاء.

وكي لا يكون خطأنا (امضاء اسود للاوقات الداكنة)، علينا ان نمد اذرعنا لنحتضن هذه الثمرة، ونحميها من الانكسار تحت ثقل الصخور السود.